واقع الخطاب الديني في ضوء الرهانات المعاصرة:

أشيخ أعمر الهورية

إن الخطاب الديني – أي الإسلامي هو كل النشاط العلمي والفكري والسياسي والممارسات الفعلية ضمن إطار الدولة والمجتمع، والتي تتحرك ضمن أصول وأوامر ومبادئ الدين الإسلامي. [1]

فخطاب الإسلام، هو خطاب الدين الذي نزل به الأمين جبريل على قلب محمد (ص) ليكون منذرا للناس كافة، بلسان عربي مبين يحمل إعجازا لا يضاهيه إعجاز، ذلك الذي يكمن في أمرين:

أولا: في شخص الرسول وتكمن في الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها، وهي في مستوى إدراكهم و إلا ما تحققت الفائدة ، فلا قيمة لحجة تفوق إدراك الخصم.

ثانيا: إعجاز بالنسبة للدين في كونه وسيلة من وسائل تبليغه، وهو فوق طاقة الجميع يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه. [2]

وعليه فالخطاب الديني –الإسلامي–، هو الرسالة التي نزلت من فوق سبع سماوات، لتنظيم علاقات البشر مع خالقهم، و مع أنفسهم و غيرهم، "فالدين ...وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات وهو...خبرة وعلم وإتجاه وسلوك وممارسة عملية، تتعاون جميعها على بناء شخصية

الفرد لكي يصبح لبنة قوية في بناء صرح مجتمع سعيد﴾ [3] ، سلوكه وخلقه هو الإسلام.

هذا هو الخطاب الذي يحدد المصلحة من المفسدة، والمستقيم من المعوج، والخطأ من الصواب، وهو الميزان الذي يفصل بين الحق والباطل، لأنه "...تعاليم أخلاقية و إرشادات و نظم اجتماعية، وتهذيب للأرواح، وتسلية للنفوس و طهارة له[1]".4

هذا هو الخطاب الإسلامي، فما واقعه اليوم في ضوء الرهانات المعاصرة ؟ وقبل أن أتحدث عن ذلك ، لابد لي من الإشارة إلى عناصر أساسية لهذا الخطاب، والتي ترتيط به ارتباط وثيق و تلازم إلى حد عدم الانفصال والتمثلة في:

1/ الوحي: و هو المتمثل في نصوص القرآن الكريم، و نصوص السّنة النبوية، وما اجتهد فيه صحابة النبي (ص) من اجماع، و قياس و هي مصادر أربعة تقوم على أساسها الثقافة الإسلامية، و ينتج عنها كل فكر إسلامي أولها: [5]

1-1 الكتاب الكريم: و هو القرآن الكريم، نص الإسلام المنزل على محمد (ص) وهو ما نقل إلينا بين دفتر المصحف بالأحرف السبعة نقلا متوا ثرا [6]، و هو كلام الله عز وجل المصدر الأول للتشريع **قال تعالى:" إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهدي لِلَتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَبَشِرِ المُؤمِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَالِحَاتِ أَنَ لَهُم أَجْرًا كَبِيرًا".** [7]

و مما لا شك فيه"...أن النص الديني هو الأصل الذي تدور حوله الاجتهادات المختلفة للفهم الديني". [8] و النص الديني هو

القرآن الكريم الذي "...امتاز بأسلوب تصويري عجيب في إيصال المعاني متجسدة، فأذهل أرباب البلاغة وهال سلاطين البيان، ووجدوا أنفسهم أمام خضم زاخر من القول المعجز الذي ما إن تصافح كلماته أسماعهم حتى تمس سفاف قلوبهم وتستقر في أذهانهم بما تضمنت من معان صفت من معان قيمة مفاهيم جديدة." [9]

فرغم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فإنهم تفاوتوا في فهمه والإحاطة بما ورد فيه من معان ومفردات، وتراكيب تفوق قدرتهم على استيعاب جمال وبلاغة وبيان هذه اللغة. [10]

1-2 السنة النبوية: هي أقوال النبي (ص) و أفعاله و تقريرا ته. [11] و"هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي و هي تلي الكتاب العزيز في الرّتبة من حيث الاستدلال بها على الأحكام الشرعية و استنباطها منها". [12]

فـ "هي كل ما صدر عن الرسول (ص) من قول أو فعل أو تقرير" [13] ، ويستدل بها كالاستدلال بالقرآن، لا فرق بينها من ناحية الاحتجاج، **قال تعالى:" فَإِنْ تَنَازَعْتم فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى الله وَالرّسُول، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاَ"** [14]، ويكون الرد بعد وفاة الرسول (ص)، باتباع سنته من بعده، **قال تعالى " وَ مَا آتَاكُم الرَسُول فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العِقَابِ".** [15]

لأن اتباع "...الهدي النبوي في تربية الأمة و إقامة الدولة يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزّ الإسلام و المسلمين من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، و يتعرفون على فقه النبي (ص) في تربية الأفراد وبناء الجماعة المسلمة، و إحياء المجتمع و إقامة الدولة..." [16]، فليس من قدوة يقتدي بها المسلمون خير من قدوة النبيّ، ، **قال تعالى:" قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِلَ وَ عَلَيْكُم مَا حَمَلْتُم وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَسُولِ إِلَّا البَلاَغَ المُبِيْنُ"** [17] لأن الهدي النبوي جاء تفسيرا وشرحا وتفصيلا لما في القرآن الكريم، كما أنه تمثيل لحقيقة النفس البشرية. [18]

1-3 الإجماع: هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد (ص) في عصر من العصور بعد وفاته على حكم شرعي. [19] ، فهو الدليل الذي يلي النصوص في القوة و الاحتجاج، و هو في مرتبة تلي النصوص و ليس قبلها، و هو يعتمد عليها. [20] ، لأنه... اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية بعد النبي على حكم شرعي في أمر من الأمور العملية، و قد أجمع علماء المسلمين على اعتبار الإجماع حجة [21].

1-4 القياس: "هو بيان حكم أمر غير منصوص، على حكمه بإلحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليه في الكتاب و السّنة" [22]، أي أن الحكم الشرعي يعرف إما بالنص، و هو ما عبر بأن الحق فيه بعينه، و إما أن يكون بتحري مقاصده و ذلك يكون بالقياس.

أو بمعنى آخر هو " إلحاق أمر لم ينص على حكمه في الكتاب و السنة أو الإجماع بأمر نص على حكمه في أحدهما لاستدراكهما في علة الحكم" [23] هذه هي المصادر الأربعة التي يقوم عليها الخطاب الإسلامي.

2/ اللغة العربية: إن لّلغة العربية علاقة خاصة بالدين الإسلامي، تتميز بها عن علاقة سائر اللّغات في العالم بدياناتها السماوية أو الوضعية، ويعود السبب الأول لهذه العلاقة إلى نزول القرآن باللّغة العربية، وما نجم عن ذلك من تقديس المسلمين لهذه اللّغة، التي ارتبطت ارتباطا قويا بالإسلام كونها الوسيلة الوحيدة لفهمه من جهة، والوسيلة الوحيدة للمحافظة عليه من جهة أخرى. [24]

اللّغة العربية لغة الإسلام ووعاء أفكاره و معارفه، و هي جزء جوهري من إعجاز القرآن، والذي لا يكون قرآنا إلا بها، و نحن متعبدون بلفظه **قال تعالى" إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَكُم تَعْقِلُون"** [25] و لا يمكن الاجتهاد إلا بها، لأن النصوص الشرعية جاءت من عند الله بلفظها، و لهذا فمن الواجب أن تكون اللّغة العربية هي التي يقوم عليها الخطاب الديني لأنها "لغة غير قاصرة على احتواء المعارف ..كما أنها لغة متطورة ومتجددة وصامدة". [26]

فمن خصائص الدين وخصائص اللّغة العربية تتولد طاقة عظيمة كفيلة بإنهاض المسلمين وقيادتهم في اتجاه التطور والله

سبحانه و تعالى اختار هذه اللّغة دون سواها –عن سائر اللّغات– لما لها من مزايا و خصائص تمتاز بها عن غيرها إذ "...أنه ليس في وسع آية لغة أخرى استيعاب دين العظمة والاتساع والشمول، فليس كل لغة تملك مؤهلات تخول لها السمو إلى مستوى هذا البلاغ، وإيصاله إلى مفهوم مختلف طبقات البشر في أروع شكل شهده تاريخ الرسالات"[*27]..، وهذه المؤهلات كثيرا ما تبرز في ألفاظها، وتراكيبها وأساليبها وصورها، و...إلخ.

فالقرآن الكريم هو معجزة محمد (ص) و جاء تحديا للعالمين **قال تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِّنُ عَلَى أن يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرَا"** [28] و نَحن نعلم أن الإعجاز ظهر في كيفية صياغة هذا الفكر الراقي بهذه اللّغة الراقية بنحو لا يرقى إليه و لا إلى جزء منه بشر و لا كل البشر، و كما كان لّلغة تأثير في الدين كان للدين دور كبير في نشر هذه اللّغة والحفاظ عليها، [29] " فلو لم يكن القرآن حافظ اللّغة العربية لتغيرت كثيرا لما هي عليه الآن..." [30] ، فهي لغة أخر خطاب وجهه الله لخلقه، هذا ما جعلها لغة تفرض نفسها على كل فئات المجتمع الإسلامي، لأنها الأساس الثاني للخطاب الإسلامي الذي لا يفهم و لا يبنى إلا بها.

هذا الخطاب الديني الإسلامي الذي أصبح مادة أساسية في الحوارات الثقافية والإعلامية، والأزمة القائمة اليوم بين

فحوى الخطاب الديني، و مفاهيمه وقضاياه هي من موجبات المرحلة الآتية في ظل التطورات والتحديات الراهنة. [31]

كما تحتل مسألة الخطاب الديني باعتباره وحيا بصفة عامة ركنا أساسيا في سياق الحديث عن دور الأديان في تطور المجتمعات، إذ أن له تأثيرا بالغا في توجيه و تشكيل فكر الناس، ووجدانهم و سلوكهم في المجتمعات عامة، وخصوصا في المجتمعات العربية، تلك التي يشكل فيها الدين –الإسلامي– مكونا بارزا من مكونات الهوية الفردية والجماعية.

وعلى الصعيد الإسلامي فالخلل ، والقصور الموجودان في الخطاب الديني لا يعني قصورا في الدين، فهناك فرق بين الدين كوحيا ربانيا ، و بين إخفاق المسلمين في ترجمة هذه النظرية إلى واقع حضاري، ف "إن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجة منطقية لقوم نسوا رسالتهم، و حطوا من مكانتها، و شابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم، و العمل على حد سواء وأهملوا السنن الربانية﴾. [32] ، فلو التزم المسلمون بقواعد الدين الصحيحة لكانوا أرقي أمة وأكثرها علما وتطورا من غيرها لما يحمله من مناهج تقود إلى بناء حضارات راقية.

يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا الموضوع: « ... وللأسف أنّ نفرا من أبناء المسلمين يرجعون الهون الحضاري الذي تعاني منه بلادنا الإسلامية كلها إلى الإسلام ذاته وعلينا أن نجنب ديننا من الظلم الشديد و أن نعترف بالعوج الملحوظ في أحوالنا وأفعالنا ونبرئ الإسلام منه». [33] ، فالنص الديني (الكتاب و السنة) فوق المحاسبة و الاتهام، إنه يحكي عن ما شرعه الله تعالى من أحكام و قواعد، و عن وحيه الأمين، و لا يمكن أن يتسرب لقلب مسلم ذرة من الشك في صدقه و قداسته، أما الخطاب الديني فهو ما يستنبطه

و يفسره و يفهمه الفقيه و العالم والمفكر والخطيب من النص الديني أو من مصادر الاجتهاد و الاستنباط المعتمدة– كما سبق الإشارة– ، و هو عرضة للخطأ و الزلل، لأن هذا الفهم و التفسير قابل للأخذ و الرد إذ أن هناك تفسيرات لبعض النصوص الدينية تعتمد الدقة و الموضوعية أو تخرج المعاني عن سياقتها و تفسر خارج منظومة فهم الرسالة و مقاصد الشريعة، هنا يقع الخطأ الذي لابد أن نعترف به كوننا بشر غير معصومين منه [34].

يقول محمد منير حجاب في حديثه عن تقويم مستوى الخطاب الديني أنه هناك عدد كبير من الدخلاء –على حد تعبيره– يتسلقون المنابر، ويستولون على وسائل الإعلام فيبثون خطاباتهم بطريقة متتابعة ويخاطبون الجماهير باسم الدين وهم ليست لهم دراية بأصول الدين الإسلامي ولا قيمه ولا طريقة توجيه. [35]

فالخطاب الديني – كما سبق القول– يتمثل في فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء وأحاديث الخطباء، وأراء ومواقف القيادات و الجهات الدينية، وهنا لا قداسة ولا عصمة من الوقوع في الزلل، والخطأ، فالاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ ، والمجتهد يعبر عن مقدار فهمه وإدراكه وقد يتأثر بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية التي تنعكس على أرائه وتصوراته، كما أن قسما كبيرا من الخطاب الديني المعاصر لا يصدر عن فقهاء ومجتهدين بل عن شيوخ وخطباء محترفين، وهذا لا ينفي وجود جهات تمتهن التصدي للشأن الديني بغض النظر عن الكفاءة والنزاهة، و بهذا فإن الخطاب الديني قابل للنقد والتقويم، لأنه كسب بشري ونتاج إنساني، " وأي قصور أو خلل في الأشخاص القائمين على الدعوة، والذي يتسبب كثيرا في تشويه صورة الدعوة لا يعني أن العيب في الإسلام، بل في بعض المسلمين." [36]

الذين جعلوا الخطاب الديني قاصرا على أفراده، سواء أكان وعظا أم إرشادا أم... [37]

يقول كمال عبد اللطيف عن الخطاب العربي – بشكل عام– : " أن الحديث عنه يستلزم التطرق بالبحث فيه والبحث في معايشته لظروف العصره وقضاياه ومشكلاته وأزماته، ومختلف التغيرات الطارئة عليه." [38]

وفي هذا السياق لنا أن نطرح سؤالا: ما مدى تعاطي الخطاب الديني المعاص لإشكالات و تحديات عصره؟.

لعل أهم إشكالية تواجه الخطاب الديني اليوم هو الغزو الثقافي الغربي، إذ "ينبغي أن ندرك أن التطور الثقافي في العالم الإسلامي يمر بمرحلة خطيرة، إذ تتلقى النهضة الإسلامية أفكارها و اتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية، وبخاصة عن طريق مصر، هذه الأفكار الفنية التي لا تقتصر على أشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يتعودها الشباب شيئا فشيئا، بل إنها تمس أيضا وبطريقة غامضة ما يتصل بالفكر وما يتصل بالنفس، و في كلمة واحدة ما يتصل بالحياة الروحية". [39]

يقول مالك بن نبي في هذا الموضوع أنه ما يثير العجب اليوم أن كثيرا من شبابنا المثقف، يتلقون عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية، حتى إنهم كثيرا ما يرجعون إلى كتابات المتخصصين الأوروبيين لينتفعوا منها، دون وعي منهم بخطورة ذلك. [40]

كما يقول إن هناك الكثير من الدراسات الإسلامية التي تظهر في أوروبا بأقلام كبار المستشرقين*، و هو واقع لا جدال فيه، و لكن ما لا نتصوره المكانة التي يحتلها هذا الواقع في الحركة الفكرية الحديثة في مختلف البلاد الإسلامية، [41] حتى إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد

بلغت درجة خطيرة من الإشعاع الذي لا نتوقعه، وأكبر دليل – مثلا- على ذلك أن يضم مجمع اللّغة العربية في مصر بين أعضائه عالما فرنسيا، يقدم إلى جامعة باريس كل عام عددا من رسالات الدكتوراه التي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون، - وهم أساتذة الثقافة العربية و باعثو النهضة الإسلامية في البلدان الإسلامية- وهي مشبعة بأفكار غرسها وزّكاها أساتذتهم الغربيون. [42]

فالأوضاع في الآونة الأخيرة قد تغيرت في العديد من النواحي إذ أصبح البيت والشارع والمدرسة و المجتمع بصفة عامة متأثرا بما خلفه الاستعمار الغربي من جهة، ومن الغزو الفكري، والعدوى العالمية من جهة أخرى، فلم يعد ملتزما التزاما صحيحا بالإسلام و قيمه –إلا من رحم ربك- [43] حتى إن الخطاب الديني لم يعد يقوم بتغطية الجانب التربوي والسلوكي والوجداني الذي كان يقوم به في الماضي.

إن المسلمين اليوم يعيشون معركة حقيقية، هي معركة الغزو الفكري بين الأفكار والقيم الإسلامية التي على كل مجتمع عربي إسلامي أن يتقيد بها ويسير فوق منهاجها، وبين الأفكار والقيم النصرانية و اليهودية والشيوعية التي تسعى إلى التوغل في الكيان العربي بكل ما أوتيت من قوة، [44] هذه المعركة التي يحاول أهلها إخفاء وجهها القبيح تحت مختلف اللافتات والعناوين المزيفة وذلك بإتباع أسلوب "...الخداع إذ هو أسلوب غير ظاهر، خفي، مستتر تحت أقنعته، فقد يأتيك بوجه مقال جذاب أو برنامج إذاعي أو تلفزيوني، أو في شريط مصور أومسلسل درامي أو..." [45]، أو حتى قد يأتيك من خلال خطاب موجه من أحد أبناء جلدتك ووطنك، بل ودينك أحيانا. [46]

فالداء الحقيقي والأزمة الكبرى التي تواجه واقعنا العربي الإسلامي، ليست في مؤامرات الخصوم فحسب – مع أن لهذه المؤامرات دور خطير– ولكن داءنا في نفوسنا وذواتنا، ويبقى القصور وعدم المساهمة الإيجابية في تطوير و تحسين الخطاب الديني، ومواكبته وفقا لأحداث العالم، قائما ما لم نغيرما في أنفسنا من كسل وهوان وضعف في الأداء والتبليغ [47]، كما جاء **في قوله: "إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرَ مَا بِقَومٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم"** [48].

فالخطوة التي ينبغي أن نقوم بها هي البحث و الفحص الجاد المتقن عن الأسباب الذاتية التي أدت إلى هذا القصور في الخطاب الديني، هذا القصور الذي يكمن بالدرجة الأولى في طريقة بثه والاستراتيجيات المتبعة فيه لتحقيق الإقنا، وفي ضعف الآليات الأسلوبية والبلاغية والإقناعية التي يستخدمها أولئك المخاطبون في وضعية بث الخطاب، مع عدم مراعاة ما يحيط به من ملابسات وخلفيات وسياقات تحكم على صحته وفائدته، وتحدد وجهته ودلالاته من دلالاته من جهة أخرى.

كما أن تدخل الحكام في شؤون الخطاب الديني أدى إلى إفساده لأنهم اتخذوه وسيلة لتثبيت مواقعهم السياسية، و محاربة معارضيهم ، فمع أن "التاريخ الإسلامي يؤكد على أن الإسلام قام على معايير سياسية منذ الوهلة الأولى، إذ وحد الجماعات العربية، و جمع السلطة، والقيادة، وحارب العنصرية..." [49] ، إلا أن طريقة استغلال هذه الظاهرة خرجت من نطاقها إلى نطاق آخر يرمي إلى خدمة الأهداف الفردية والشخصية، دون مراعاة الأبعاد الحقيقية التي يرمي إليها الخطاب الديني، فالإعلام مثلا باعتباره سلطة نافذة في بث الخطاب و نشره، كثيرا ما نجد أن السياسة هي صداه و موضوعه ومفعوله العضوي "إذ أن الإعلام ليس سوى ذلك

الآلة التي ينافح بها الساسة عن مكاسبهم، والقناع الذي من خلاله يتلونون ويؤدون الأدوار" [50]

كما أن الحديث عن الخطاب الديني اليوم هو الحديث عن الدعوة الإسلامية*، التي اتخذها العديد وظيفة ووسيلة من وسائل كسب المال للعيش، وهذا لا ينبغي أن يكون، لأنه ينعكس سلبا على ضعف الخطابات الإسلامية الموجهة في الوقت الحاضر بشكل عام لكن هذا لا ينفي وجود من اتخذها رسالة ومهمة عظيمة لا أكثر ولا اقل. [51]

فالدعوة التي تحملها الخطابات الدينية تتطلب الخطيب الجيد الأمين العالم لحقائقه ، كما يجب أن يكون له من الثقافة الإسلامية ما يجعله كفيلا قادرا على توصيل رسالته في خطاب واضحا مؤثرا بقلب مفتوح وتقنيات لغوية وأسلوبية فذة. [52]

فالأزمات التي يعاني منها الخطاب الديني في البلدان العربية اليوم، لا تنبع فقط من فحوى هذا الخطاب وبنيته، وطريقة طرحه للمتلقين وإنما تنبع أيضا من صاحب الخطاب، أي الشخص الذي يقع على كاهله مسؤولية نقل فحوى هذا الخطاب إلى الجمهور، إضافة إلى أزمات أخرى كثيرة منها ما يلي :

1- أزمة العقل: إن ما يعيشه الوسط العربي من صراعات سياسية، واجتماعية وطائفية، وانتشار للتعصب ، والتناقضات الفكرية الخطيرة، تسهل على أعداء الإسلام النفاد إلى صفوفهم والسعي الدائم لإبقائهم على فرقة، وقد نجحوا في تحقيق أغراضهم [53]. و قد يعود السبب إلى أزمة العقل المشرقي الذي يخشى مسألة الحداثة والتجديد في التفكير فيلجأ إلى الهروب عن الواقع وينفصم عن أوضاع المجتمعات

المعاصرة [54] ، فيحتمي بمنطلق الدين، فيفسرها ويشرحها – باجتهادات شخصية أحيانا– و يجعلها أحيانا وسيلة لترهيب عقول الناس، إذ لا يزال العقل العربي عاجزا عن تسخير طاقته لخدمة الدين، و لعل هذا يرجع إلى منطلقات سلبية أصابت الخطاب العربي –بشكل عام– و هي: [55]

1–1–الاستبداد الفكري المؤسس على فرضية امتلاك الحقيقة المؤدية إلى نفي الآخر فعلى الرغم من أن الحقيقة لا يمكن الإمساك بها، أو ادعاء الوصول إليها، إلا أن القائم بالخطاب –أحيانا– ينطلق فكريا من أنّها في يده هو وحده، والآخر لا يملك شيئا منها هذا ما يؤدي إلى النزاعات الطائفية والعقائدية فيما يعلق بالخطاب الديني.

1–2– انغلاق النسق المعرفي: إذ أن الاستبداد الفكري أدى إلى وجود انساق معرفية مغلقة تماما، غير قادرة على التجدد أو الانفتاح أو الاستفادة من الآخر، وغير قابلة للتطوير والتجديد أو إثارة قضايا جديدة تنفع الأمة العربية. [56]

1–3– سكونية الزمان: إذ أن الناظر في القضايا المطروحة، التي ينشغل بها الخطاب العربي المعاصر، لا تزال قضايا السلف الصالح في القرون الأولى للإسلام هي قضايانا نفسها ، وأزمات العالم الإسلامي في مرحلة ما بعد الحملة الفرنسية هي نفسها أزمتنا اليوم. [57] و التقيد بالرجعية، والجمود على مذهب السلف في الأفكار والعادات والمعتقدات دون مسايرة الزمن، مع أن للإسلام قدرة على فعل ذلك في كل الميادين والمجالات، والقدرة على إيجاد حلول لجميع المشاكل المتجددة مع الزمن [58].

2– محددات متعلقة بمنهج الخطاب: هي مجموعة من المحددات المنهجية التي حكمت طريقة تعاطيه مع الواقع و قضاياه و إشكالاته، و هي كالآتي: [59]

2-1- تهميش الحقائق الواقعية: إذ أن المتفحص في الخطاب الفكري، أو السياسي أو الديني لأي خطاب عربي يجد أنه يتكلم عن واقع اجتماعي من صنع خياله وإبداعه، وهو غير ذلك الواقع ذي الأبعاد المتعددة والمتداخلة وهذا ما يمنع ﴿التواصل مع الواقع على قاعدة من الوعي، والحصيلة الفكرية التي تؤهل الإنسان لبيان رأيه وموقعه اتجاه الواقع وأحداثه﴾ [60]

2-2 التعميم دون استقصاء: فكثير ما نجد المثقف العربي يميل إلى إطلاق الأحكام الكلية على أي ظاهرة، فكثيرا ما تطلق أحكام لتشمل فريقا ضخما من المثقفين لا لشيء إلا لأنهم يندرجون تحت لافتة واحدة، كأن تقول الإسلاميون – مثلا- جميعهم يندرجون تحت فئة واحدة بأفكار مشتركة و لكن هذا غير صحيح، وإذا كانوا جميعا ينتمون لذات الفئة إلا أن منهم من يرفض قيم الحداثة الغربية، و منهم من يقبلها لكن بعد غربلتها و تصفيتها. [61]

2-3- غلبة عقلية التقليد و الاجترار: إذ يسيطر على الإنتاج الفكري العربي نوع من الولوع بالتقليد، و التخوف من الإبداع، حتى أن هناك من يدّعون تمثيل الحداثة، وهم الأكثر تقليدا واجترارا لأفكار وقضايا وليدة مجتمع آخر في سياق آخر وثقافة أخرى... [62]

3- أزمة مخاطبة الإنسان بكليته: إذ إن الخطاب الديني يعاني من أزمة فقدان منطق التعامل مع الإنسان بكليته،إذ يهمل في كثير من الأحيان جانب الواقع الحياتي الإنساني ومعاناته اليومية،

ومازال مهتما بشكل كبير بشرح النواحي العقائدية بطريقة مجردة من إطارها ومحيطها الإنساني، هذا ما يجعله يتحول إلى خطاب جامد لا يجد سبيلا للتواصل مع مشاكل

وتطلعات الناس والمجتمع، وهذا ما يعرف بالانعزال عن الواقع، والذي يؤدي إلى الجمود الفكري و ضيق في النظر إلى الأمور و ضعف في معالجتها إذ "...تتعاظم الحواجز النفسية والذهنية التي تحول دون معرفة الواقع، ومن تم التفاعل والتواصل معه، فيؤدي إلى غبش في الرؤية، و ضبابية في المفاهيم والمعايير". [63]

4- أزمة التشدد و التعصب: لم يستطع الخطاب الديني –حسب ما نراه في واقعنا- أن يرقى في منطقتنا العربية، إلى مستوى تحصين الشعوب من أمراض التطرف الذي "...يصادر الحقيقة، ويشرع الاستبداد و الرأي الآخر، و يخرج الإنسان من دائرة الموضوعية..." [64]

فالتعصب و التشدد يبعد عن الحقيقة، و ينفي مجال مخالفة الرأي بين الأشخاص وإبداء الرأي الآخر من المحرمات، و هذا أمر باطل "لهذا لابد أن يتحلى المرء بأدب الاختلاف والحوار و الجدل، حتى يتسنى لنا معرفة الحقيقة أولا والقبول بها ثانيا" [65] ، وبذلك تتأسس قواعد التواصل الإنساني الحضاري القائمة على المساواة بين الشعوب ويكون بينها التآلف والمحبة و السلام.

5- أزمة الانفتاح على الثقافة العالمية: إذ كان الخطاب الديني يعاني من مسألة الانغلاق على الذات، ورفض الأفكار في الثقافة العالمية، وإغلاق الباب في وجه التبادل الثقافي والفكري والإسلامي مع العالم. فالعولمة الفكرية

والثقافية باتت تتحدى مضمون الخطاب الديني التقليدي في البلاد العربية المسلمة، ﴿فلقد وجدت الشعوب الإسلامية نفسها ضعيفة مفككة، وكانت معطلتها الحقيقية هي تنظيم جهودها لتقاوم السيطرة الغربية..." [66]، وحتى يتم ذلك على الخطاب الديني أن يطور نفسه ليحاكي المستجدات والتطورات الدينية والثقافية

والإنسانية العربية والعالمية، وأن يرقى هذا الخطاب إلى مستوى العالمية.

6- ضعف الوعاء الخطابي: يقول محمد منير حجاب في ذلك: "أما بخصوص محتوى الخطاب الديني فيتسم بالرمزية و الشخصية و الجمود، في الوقت الذي ألف فيه الناس أشكالا أخرى من الخطاب، ونمت في حسهم طرق أخرى للاستيعاب، وتمثيل الأفكار بأساليب سهلة ومستشاعة، فنشأ عن هذا الوضع ابتعاد جوهري أدى لضياع هام للفاعلية الدعوية" [67]، وقد تزامن أثر هذا الخطاب على الجماهير مع قصور الخطيب الداعي في تلبية الاحتياجات الدينية و الاقتصادية والثقافية...حسب مستجدات العصر سواء على مستوى الدعوة الداخلية أو الخارجية.

وربما يرجع هذا إلى تخلف مناهج إعداد الخطيب في حد ذاته، إذ أنه لابد من التخصص الدعوي، فيكون الخطيب السياسي، والديني، والثقافي، كل يعالج أمور خاصة دون غيرها هذا يجعله يتقن خطابه ويحسن صياغته و يدرك طرق، مقومات ومنافذ إيصاله وبالتالي يصل به إلى مبتغى الإقناع والتأثير و تحقيق الإفادة. [68]

وكثيرا ما نجد القطيعة بين المتكلم القائم على بث الخطاب الديني، وبين شخصه فهناك "أناس يجاهرون بالدين، وعند الاحتكاك

بهم يتبين أن سلوكهم ليس قريبا من الدين" [69]، إذ من علامات الخطيب الديني الداعي إلى الله التطبيق الفعلي في كل ما يأمر به أو ينهى عنه،حتى يكون مثالا يحتدى به [70] ، كما جاء في **قوله تعالى: " كَبُرَ مَقتًا عِنْدَ الله أنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونْ"**. [71] إذ قد تواجه أساتذة في علوم الدين، ولكن سلوكياتهم ومواقفهم مغايرة تتسم بالغلظة والشدة، واستغلال السلطة، فهم يبعدون كل البعد عن الدين فكيف لهم أن يكونوا ذوي تأثير وقدوة [72] .

هذه كلها من سلبيات الخطاب الديني المعاصر بالإضافة إلى ذلك كثرة استعمال اللّغة التراثية، التي لا مكانة لها في تحقيق الإقناع، لأنها تخلق غرابة اتصالية بين المرسل والمتلقي، وبذلك تضعف وتعدم الاستجابة المطلوبة.

إضافة إلى اعتماد أسلوب الإرشاد و الوعظ المباشر و الاستعلاء في الكلام، وطرح الأفكار بطريقة مثالية تبتعد عن الواقع، هذا يولد إحباطا عند المتلقي، ولا يزرع في نفسه وقلبه إلا التقديس إلا بلا وعي لرموز وتعاليم الدين.

كما نلحظ أيضا عدم التوازن في كثير من الخطابات الدينية و ضآلة العناصر الفنية كالعناصر الإلقائية والجمالية المستخدمة فيها، و طريقة العرض الكلاسيكية التي لا تقوم على الحوار المباشر مع الجمهور، وانعدام الإبداع الفني الذي يؤثر على المتلقين تأثيرا بليغا بصورة فعالة، إن كان هذا الأسلوب لا يفيد العامة من المتلقين و إنما يفيد المتمكنين من اللّغة والبلاغة. [73]

والحقيقة وإن كنت قد تحدثت عن مواطن ضعف الخطاب الديني في واقعنا المعاصر – وأطلت الحديث في ذلك– فإن هذا لا يعني أن ليس له

من الإيجابيات والمحاسن ما يذكر إلا أن ذلك كان من باب ذكر ما هو سلبي سعيا إلى إيجاد الحلول اللازمة حتى نسوقه إلى التطور والتجديد أكثر مما هو عليه اليوم .لأن الخطباء اليوم صاروا معنيين بتعويض ما فاتهم من نقص حتى يستطيعوا الوقوف في وجه القوى المتوغلة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

الإحالات

[1] [1]ينظر" الخطاب الديني في الجزائر" عتيق العربي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران- السانيا ، إشراف العلوي أحمد سنة 2001-2002 ص24.

[2] ينظر " الظاهرة القرآنية" مالك بن نبي، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت، ط3 ، 1968، ص71.

[3] "الطرق الخاصة في التربية الدينية" عبد الهادي عبد الوهاب، مجلة همزة وصل، مجلة التكوين و التربية ع 8، 1974-1975 ص 29.

[4] مقال "حاجة البشرية إلى التشريع السماوي، عبد الرحمن الجيلالي، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية السنة التاسعة مارس، أفريل، ماي، جوان، ع 79/ 80- 81/ 82 ص 54.

[5] "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ ، المركز الثقافي العربي ط1، 1999،ص 65.

[6] "الأحكام في أصول الأحكام"، سيف الدين الأمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1 مجلد1، ص137.

[7] سورة الإسراء ، الآية 9.

[8] "الفكر الديني في مواجهة العصر": عفت الشرقاوي، "دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث"، دار العودة بيروت، ط2-1979 ، ص 56.

[9] "دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام"- عبد الرحمان صيام، سلسلة اللّغة والأدب، تصدر عن ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 311.

[10] ينظر، "الفكر الديني في مواجهة العصر"، عفت الشرقاوي، ص 18.

[11] ينظر، "أصول الفقه"، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ب ت ، ب ط ، ص 98.

[12] "أصول الفقه إسلامي" ، أحمد فراج حسين ، ص36.

[13] "الأحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الأمدي، دار الكتب العلمية"، بيروت، لبنان ، ط1، 1985 ص 145.

[14] سورة النساء الأية 59.

[15] سورة الحشر الآية 07.

[16] "السيرة النبوية، عروض ووقائع و تحليل أحداث"، علي محمد صلابي، دار إبن جوزي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2007، ص7.

[17] سورة النور، الآية 54.

[18] ينظر، "الفكر الديني في مواجهة العصر"، عفت الشرقاوي، ص22.

[19] "من أصول الفقه الإسلامي"، أحمد فراج حسين و عبد الودود أحمد السيريني ص 60 ،و لمزيد من المعلومات حول الإجماع، أركانه، أنواعه، الأدلة ...إلخ ينظر المرجع نفسه ص 60-72.

[20] " أصول الفقه" الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، بت، بط ص 184.

[21] ينظر ، المرجع نفسه ص 185.

[22] "المرجع نفسه، ص 204

[23] "أصول الفقه الإسلامي" أحمد حسين قراج و عبد الودود محمد السريتي ص 73، ولمزيد من المعلومات حول القياس و حجيته و أدلته و شروطه ينظر المرجع نفسه (73-96).

[24] ينظر "العلاقات الأبدية بين الإسلام و العربية" أحمد بن نعمان، ص 69.

[25] سورة الزخرف، الآية 3.

[26] "اللغة العربية و تحديات العصر" نصر الدين، مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية تصدرها كليه الآداب و العلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف ع1 أفريل 2004 ص 8 وما بعدها. و المقصود هنا الثوراة بالعبرية و الإنجيل بالآرمية.

[27*] "كلام الله من خلال لغة العرب"، ميشال عبد الكريم، مجلة الحضارة الإسلامية، وهران نوفمبر 1998 ع4 ص 45،

*كالثورات الذي جاء بالعربية، و الإنجيل بالآرمية ...إلخ.

[3] الإسراء، الآية 88.

[4] ينظر، "العلاقات الأبدية بين الإسلام و العربية" أحمد بن نعمان، مجلة الأصالة ، مجلة ثقافية شهرية ، مارس، أفريل، ماي ، جوان ، ع 80679/ 81-82، 1980م، ص 68.

[5] المرجع ن ص 67.

[31] ينظر، "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ، المركز الثقافي العربي ط1، 1999، ص 5.

[32] "السيرة النبوية، "عرض ووقائع و تحليل أحداث"، علي محمد الصلابي، دار ابن جوزي للنشر و التوزيع القاهرة، ط1، 2007 ص 8.

[33] ينظر ،"لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة"، محمد الغزالي إعداد و تقديم أبو أسامة محمد خلفة، نوميديا للطباعة و النشر و التوزيع، ط1 ، 2008،، ص 196.

[34] "المرجع نفسه، ص 196.

[35] ينظر، "تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر"، محمد منير حجاب، دار الفكر للنشر و التوزيع، ط1، 2004 ، ص 380.

[36] " المرجع نفسه، ص 324.

[37] " ينظر، "إشكاليات الخطاب العربي المعاصر"، كمال عبد اللطيف، نصر محمد عارف، دار الفكر بدمشق، ط1، مارس 2001م، ص 67.

[38] ينظر ،المرجع نفسه، ص 110.

[39] "الظاهرة القرآنية"، مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت، ط3، ،1968 ص 54.

[40] ينظر المرجع ن ص 45.

[*] الإستشراق هو حركة دراسة العلوم و الآداب و الحضارة و الثقافة الإسلامية بهدف معرفة عقلية المسلمين و أفكارهم و اتجاهاتهم لضرب هذه القوة و الاستفادة من تجاربهم من جهة و التمهيد للاستعمار النصراني من جهة ثالثة- ينظر الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، سعد الدين السيد صالح، مكتبة رحاب، ب ت ، ب ط ص 89، لمزيد من المعلومات حول الإستشراق م ن/ ، (ص 89-114)

[41] ينظر، "الظاهرة القرآنية"، مالك بن نبي، ص 45.

[42] ينظر، المرجع نفسه ص 55.

[43] ينظر، "إسلاميات" "من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر في أمور الدين في التاريخ –في الاقتصاد- في الأدب"، محمد قطب، دار الشروق، ط1 ،2003 م ، ص 16.

[44] ينظر ، "الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام"، سعد الدين السيد صالح، ص 35.

[45] "من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر"، محمد قطب ، ص 35.

[46] المرجع ن ص ن.

[47] "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999 ص 13.

[48] سورة الرعد ، الآية 11.

[49] "الخطاب السياسي الإسلامي في الجزائر" عتيق العربي، ص 2 من المقدمة.

[50] "الخطاب السياسي و الخطاب الإعلامي في الجزائر مدارسة لسيمونتيك القول و الفعل و الحال"، عشراتي سليمان،
دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران ، ن ت ، لسيمونتيك ،ص 234.

[51] ينظر ، "مناهج الخطيب"، حسن هدية، دار الإيمان للطباعة و النشر و التوزيع، 2003 ، ص 11.

[52] ينظر المرجع نفسه ص 16.

[53] "صفات الداعية و كيفية حمل الدعوة"، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني بيروت ، ط 7، ،1980 ص 51، 52.

[54] ينظر، "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ، ص 81.

[55] ينظر، "إشكاليات الخطاب العربي المعاصر"، كمال عبد اللطيف، نصر محمد عارف، ص 70.

[56] ينظر، المرجع نفسه ، ص 72.

[57] ينظر، "إشكاليات الخطاب العربي المعاصر"، كمال عبد اللطيف، نصر محمد عارف، ص76.

[58] ينظر، "صفات الداعية وكيفية حمل الدعوة"، سميح عاطف الزين ص 156 – 157.

[59] ينظر، المرجع نفسه ص 80 و ما بعدها.

[60] "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ ص 119.

[61] ينظر، "إشكاليات الخطاب العربي المعاصر"، كمال عبد اللطيف، ص 82.

[62] ينظر ،المرجع نفسه ، ص 84.

[63] "الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل"، محمد محفوظ ص 119.

[64] المرجع نفسه ، ص125.

[65] المرجع نفسه ، ص ن.

[66] "الفكر الإسلامي في مواجهة العصر"، عفت الشرقاوي، ص 109.

[67] "تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر"، محمد منير حجاب، ص 183.

[68] ينظر، "تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر"، محمد منير حجاب، ص 183.

[69] المرجع المرجع، نفسه 97.

[70] "منهجية الدعوة الإسلامية"، طالب عبد الرحمن، دار الغرب للنشر و التوزيع، ص 34.

[71] سورة الصف ، الآية 03.

[72] ينظر، "منهجية الدعوة الإسلامية"، طالب عبد الرحمن، ص 34.

[73] **ينظر، " المرجع نفسه،ص ن**